القسم الاول

الفصل الاول

لمحات تاريخية عامة

مع بغداد التاريخي وبناؤها ومعالمها ، لمحة تاريخية عن بغداد منذ تأسيسها حتى اليوم ، مدينة السلام وكوارث الطبيعة ، موجات الطوفان ، موجات الطاعون ، موجات الكوليرا

obeikandl.com

مجمل الادوار التي مرت على بغداد منذ بنائها حتى الوقت الحاضر

موقع بغداد التاريخي

ليس هناك من الاثار ما يستدل منه على وجود حياة مأهولة في موقع بغداد على عهد البابليين غير بضع آثار ثبت انها بابلية في جانب من جوانب الكرخ ، اما في العهد الساساني الذي سبق الفتح الاسلامي فقد كان في موقعها مجموعة من القرى اسم اهمها (كرخا) ، وقبيل الفتح الاسلامي كان في شرقها مكان يسمى سوق الثلاثاء وهو سوق عام كان يقام يوم الثلاثاء من كل اسبوع للبيع والشراء وفض الخصومات وحل المشاكل والمطارحة في ما قد يجد من احداث ، ويقول المؤرخ الالماني هرزفيلد (Herzfeld) انه كان يقام في الارض التي بين جامع مرجان وبين المستنصرية .

بناؤها

عندما قامت الدولة العباسية في العراق على يد السفاح كان من اهم ما اشغل ولاة الحكم ان تكون لهم عاصمة فخمة تضاهي الشام عاصمة الامويين وتكون في وسط منطقة النفوذ العباسي الهامة في العراق وبلاد العجم وبعيدة عن جوار البيزنطين . وكانت هذه الفكرة تدور في رأس السفاح الا ان اعماله في توطيد السيادة العباسية والقضاء على الحكم الاموي اشغلاه عن اخراج فكرته تلك الى حيز الوجود ، فلما جاء ابو جعفر المنصور بعده وجد ان الضرورة ماسة جدا لبناء عاصمة جديدة غير الانبار وقصور الهاشمية التي بناها السفاح .

وقد اختير لمحل العاصمة موقعها الاخير على دجلة بالنظر الى ان دجلة يمر من منطقة خصيبة بعكس الفرات الذي يمر من منطقة اقرب الى صحراء الشام ، ثم ان دجلة اصلح للملاحة وهو ابعد من بلاد الحكم الاموي واقرب لبلاد العجم ، هذا غير ما في طبيعة ذلك الموقع من خصب وما فيه من (مرافق للرعية) ونحو ذلك .

امر الخليفة بالشروع في بناء بغداد عام١٤٥هجرية(٧٦٢ ميلادية)، وتم بناؤها عام ١٤٩هـ (٧٦٦ ميلادية) . وفي عام ١٤٦هـ ارتفع بناء بغداد وانتقلت دواوين الدولة اليها من الكوفة وكان يشتغل في بنائها نحو مئة الف عامل ، وبعد اربع سنين من تاريخ البدء تم بناء (المدينة المدورة) ويرجح انها كانت في الموقع الذي بين الجعيفر و(السلجية) وجامع الشيخ معروف في الوقت الحاضر وقد اندثرت الآن تماما نظرا لانها بنيت باللبن ولم يستعمل الآجر الا قليلا .

شكلها ومعالمها

كانت بغداد بعد بنائها مدينة مدورة يحيطها سوران عظيمان وخارجها خندق فيه ماء وفي داخلها ساحة وسطي يحيطها سور آخر صغير له اربعة ابواب متساوية الابعاد وفيمركز هذه الساحة قصر الذهب وهو قصر الخلافة وبجانبه جامع المنصور .

وليس بين السور الخارجي والسور الداخلي بناء ما وقد اعدت هذه المساحة من الارض لاعمال الجند دفاعا عن المدينة عند الخطر.

ومن اهم المعالم التي تمت بأمر المنصور سجن بغداد وكانيسمى (المطبق) وثكنات الجند وقصر الخلافة والدواوين كبيت المال وديوان الخراج وديوان السلاح وديوان العطاء وديوان الحرب .

اما قصر الذهب او قصر القبة الخضراء فقد كان قصر الخلافة حتى عهد الرشيد الذي كان يفضل الاقامة في قصر الخلد خارج المدينة المدورة .

اما الرصافة فكانت تسمى بغداد الشرقية وقد امر المنصور ببنائها لابنه المهدي عام ١٥١ هـ وسبب خرابها عوامل شتى ، منها بناؤها باللبن والطوفانات التي اغرقتها واهمها طوفان عام ٣٣٠ هجرية الذي لم يبق ولم يذر .

واقام الخلفاء العباسيون في بغداد نحوا من خمسة قرون من سنة ١٤٦هـ ـ ٦٥٦هـ وتقسم هذه الدورة الى قسمين مع فاصل بينهما مدته ثمانية وخمسين عاما وهو الذي انتقلت فيه الخلافة الى سامراء ، ومدة الدور الاول ٧٥ عاما .

obeikandi.com

وكانوا يقيمون في الدور الاول في الجانب الغربي اي في المدينة المدورة التي اتينا على وصفها آنفا · ثم انتقلوا في الدور الثاني الى الجانب الشرقي في المنطقة التي حول قصور المهدي وهنا انشأوا القصور والمحلات الجديدة والشوارع والارباض حول قصور الخلافة وليس هناك من آثار هذا الجانب الشرقي اليوم الا ناحية من السور الشرقي الذي بني في القرن الخامس الهجري ·

ولم يكن الجانب الشرقي قبل ان يصبح مدينة كاملة فخمة البناء الاثلاث محلات معظمها خارج سور المدينة المدورة في الموقع الذي فيه الاعظمية اليوم وهذه المحلات هي الشماسية والرصافة والمخرّم وكانت في نصف دائرة ويخترقها شارعان ·

ومن اهم معالم القسم الشرقي البيمارستان العضدي الذي بنى عام ٣٧١هـ قبل وفاة عضد الدولة بسنة وخرب اثناء حصار بغداد من قبل هولاكو · ومن المعالم الشهيرة (العتابية) وهي دار لصناعة الثياب والنسيج ومن اسمها دخلت في اللغات الاوربية معنى تشبيه النعومة بالحرير العتابي فيقولون ناعم كالحرير العتابي ·

ومن القصور المتأخرة الفردوس وقصر التاج وقصر الحسني وكان للمدينة ثلاثة جسور في زمن المنصور ·

لمحة تاريخية

دامت بغداد مركزا للعصر العباسي الذهبي الزاهر حتى مات الواثق بالله عام ٢٣٢ هجرية وقد كانت في هذه الفترة عروس المدن وقبلة انظار العالم ومحط العلماء واصحاب الفنون وروض المعارف ؛ فلما جاء المتوكل ابتدأ العصر العباسي الثاني وفيه ضعفت الخلافة وتسلط الاتراك على مقاليد الدولة وتغلغلوا في اعمالها وتسلطوا على مقدراتها ، وكان من نتيجة ضعف الخلافة المركزية ان قامت بعض دول الطوائف كالدولة الطولونية (٢٥٤ـ٢٩٣هـ) والدولة الاخشيدية (٣٢٤ـ٣٥٨هـ) والدولة الحمدانية ودولة القرامطة (٢٧٧هـ) ·

وفي عام ٣٣٤ هـ بدأ الدور العباسي الثالث وهو دور استيلاء الفرس على الدولة فصار آل بويه اصحاب النفوذ وقاموا في ذلك مقام الاتراك وكانوا يعاصرون الفاطميين في مصر والدولة الاندلسية وبهذا تقسمت الخلافة الى اندلسية وفاطمية وعباسية . وآل بويه اسرة فارسية اشتهر منهم عضد الدولة صاحب البيمارستان العضدي وهو امير صالح معمّر ، وقد نبغ في هذا العهد عدة رجال من فحول العلماء كأبن سينا الطبيب والمتنبي الشاعر والفارابي الفيلسوف وابو الوفاء الرياضي الفلكي .

وفي عام ٤٤٧هـ استولى السلاجقة على الخلافة العباسية ؛ وكانت الدولة العربية في هذا العصر في اضمحلال واخطار كثيرة ، فالخلافة الاندلسية قد تجزأت بين ملوك الطوائف والصليبيون يهاجمون الخلافة الفاطمية والسلاجقة يهاجمون الخلافة العباسية ؛ ومن اشهر وزرائهم نظام الدولة موسس المدرسة النظامية الشهيرة . وفي هذا الدور قامت دولة الاتابكة وهم من قواد السلاجقة اسسوا دولتهم في الموصل وفي عهدهم نبغ ابن خلكان .

وفي عام ٦٥٦ هـ (١٢٥٨م) كان المغول قد خرجوا من قلب آسيا واستولى جنكيزخان على آسيا ووصل الى حدود العجم (٦٢٦ هـ) ومن ولاته هولاكو الذي هاجم بغداد واسقط الخلافة العباسية عام ٦٥٦هـ وكان الخليفة هو المستعصم بالله .

وحلت النكبة العمياء ببغداد وحضارتها وعلمها وادبها على يد المغول ، فحرّقوا الكتب واتلفوا المعالم وضيعوا تراث الفكر الانساني المستنير ، ولا زلنا حتى اليوم نقاسي من اثار هذه النكبة في بحوثنا من العسر شيئا كثيرا لضياع المستندات الثمينة وفقدان الآثار العلمية الرائعة.

وكان سقوط بغداد وحلول النكبة المغولية الهائلة في ٤ صفر سنة ٦٥٦هـ الموافق ٢٠ شباط سنة ١٢٥٨ م .

وقامت عام ١٢٥٨م الدولة الايلخانية وهم من سلالة هولاكو وبقيت حتى عام ١٣٤٠ م حيث استولى الجلائريون على بغداد واقام زعيمهم تيمورلنك دولة فيها دامت حتى عام ١٤١٠ م .

وفي عام ١٤١٠م استولى التركمان على بغداد واقاموا حكومة القره‌قيونلي (الكبش الاسود) وداموا حتى عام ١٤٦٨م وفيها قامت دولة الآق قيونلي (الكبش الابيض) وهي تركمانية كذلك ودامت هذه حتى عام ١٥٠٨م ٠

وفي عام ١٥٠٨م جاءت موجة الفرس على يد الشاه اسماعيل الصفواني فاسسوا الدولة الصفوانية ثم استولى الاتراك على البلاد عام ١٥٣٤م على يد سليمان القانوني ، ثم عاد الفرس مرة اخرى ولكنهم لم يلبثوا الا قليلا اذ طردهم سليمان مرة اخرى عام ١٦٣٣م ومن ذلك الحين بقيت البلاد في حوزة العثمانيين حتى الحرب العامة عام ١٩١٧م٠

يتضح من هذا التاريخ الملىء بالاحداث والخطوب ما ألم بمدينة السلام من محن وارزاء ، ومن هنا يستبين المحقق كيف ان النتائج الموجودة الآن انما هي ارث هذه السنوات العجاف القاتلات التي صارت البلاد في اثنائها مسرحا للاهواء والشهوات ومجالا للفتن والاجتياحات وساحة لتصادم المطامع والنزوات فمن ترك الى فرس ومن مغول الى تركمان الى تصادم بين الفرس والترك لا يذهب ضحيته الا هذه البلاد فلا تنزل النوائب الا بساحتها ولا تحل الخطوب الا بواديها واطرافها ٠

وحلت الحرب العظمى فاحتل الانكليز البلاد ، ثم قامت حكومة المغفور له الملك فيصل عام ١٩٢١ م ثم عادت البلاد من تلك الفترة تحاول لم الشعث واسترجاع شوارد الانفاس لكيما تكون لها حياة موفورة باذن الله ٠

مدينة السلام وكوارث الطبيعة

قامت مدينة السلام من الشدائد والاحن شيئا كثيرا منذ قامت على الارض مركزا للخلافة والسلطان ٠ ولم يكن مصدر تلك الشدائد واحدا وانما جاءتها من الغاصبين واجتياحاتهم التي دمرتها مرارا وقد مر بك تفصيل ذلك ، ومن الطبيعة في صورة الطوفانات المتعددة وموجات الطاعون المهلكة ونحو ذلك مما سنفصله لك في هذه الفقرات لتعلم اي هول

قاسته هذه المدينة التاريخية في ادوار حياتها آملين ان تكـون اعمالك لهذه الامة موصلة لها الى شاطيء السلامة بأذن الله ٠

موجـات الطـوفان

كانت بغداد هدفا لسلسـلة من موجات الطـوفان الهائلة تدمرهـا تدميرا وتقضي على كثير من مظاهر عزتها وابنيتها فتؤثر زمنا طويلا في حضارتها وسير تقدمها العلمي والادبي والسياسي حتى تبنى ثانية ويجدد عمارتها لتعاود سيرها فيطريق الحضارة ٠ واول طوفان تحدثنا عنه مصادر التاريخ هو الذي حدث عام ٩٤٠ ميلادية على عهد المتقى بالله العباسي وسمته بالطوفان الاسود ؛ فقد فاض الفرات فيضانا شديدا بنتيجة انكسار السدود واهمها قناة عيسى وهجم الماء الاسود (١) على المدينة المدورة وملأ خنادقها ثم تسرب الى شوارعها واسواقها وبيوتها فكان ان دك اكثر بيوتها التيغدت غير صالحة للسكنى مدىعامين تجددت بعدها العمارات٠ وقد ادى هذا الطوفان الى خسائر هائلة في المال والانفس وعطل سير العلوم نحوا من ثلاثة سنين ٠

وتحدثنا المصادر عن طوفان آخر عام ١٠٧١ ميلادية (٥٥٤هـ) في زمن الحكم البويهي فقد انكسر السد الذي بناه معز الدولة في شمـال المدينة فغرق القسم الشرقي (راجع وصف المدينة المدورة) وتداعت ابنيته ثم جددت بعد ذلك ٠

وقد اضاف الى فاجعة هذا الطوفان انه حصل في الليل وارتفعت المياه بصورة خطرة حتى دخلت المستشفى العضدي من شبابيكـه وهدمته وجرفت المياه قبر الامام ابن جنبل رضي الله عنه ٠

وقد جددت عمارة البيمارستانالعضديبعد ذاك كما يتضح من وصف ابن جبير الاندلسي له وكان قد زاره عام (٥٨٠ هـ) اي بعد الفاجعة بنحو من ست وعشرين عاما ٠

---

(١) صفحة ١٠٥ من كتاب بغداد مدينة السلام لريشارد كوك بالانكليزية .

وحدثت طوفانات اخرى ليست فائقة الشدة وان كانت كلها تنجح في ان تثلم شيئا غير قليل من المدينة ومنها تلك التي حدثت عام ٤٦٦هـ ـ ٩٨٣م وعام ٥٦٩هـ ـ ١٠٨٦م · وحصل طوفان آخر بعد نكبة بغداد الكبرى على يد الطاغية المغولي هولاكو خان وذلك على عهد الاسرة الايلخانية حوالي عام ١٣٠٥م · كما حصل طوفان آخر على عهد الاسرة التركمانية الثانية حوالي عام ١٦٥٦م ·

وجاءت سنة ١٨٣٠ بنكبات قاصمات فمن موجة للطاعون خطرة الى طوفان هائل الى اجتياح فارسي وسيمر بك تفصيل ذلك عند الحديث عن موجات الطاعون ·

موجات الطاعون

وكما ان موجات الطوفان الهائلة حطمت من قوى هذه المدينة التاريخية فكذلك كانت موجات الطاعون ضغثا على اباله ؛ فقد اكتسحتها مرات عديدة وكانت تقضي على الانفس بالالوف سيما وان التدابير الصحية في ذلك العهد لم تكن بالتي تكفل ايقاف شرها وتقليم اظافرها علاوة على انها كانت شديدة الى حد بعيد ·

كانت هذه الموجات الخطرة تحل على بلاد الرافدين من ايران في الغالب فتبدأ من الشمال الشرقي ثم تكتسح القرى واحدة بعد اخرى لا تبقى ولا تذر حتى تصل بغداد فيكون الويل قد بلغ اشده والنكبة قد وصلت غايتها من التحطيم والتدمير · وليس لدينا من هذه المصادر التي بين ايدينا ثبت تاريخي كامل لهذه الموجات الا اننا نذكر في ما يلي بعض التواريخ التي تأكدنا منها ·

واول موجة للطاعون تحدثنا عنها المراجع كانت عام ١٤٠٥م بعد وفاة تيمورلنك فكأن الطبيعة لم تكتف بويلات المغول فاضافت من عندها هذه النكبة · وجاءت موجة اخرى عام ١٦٨٩ في العهد التركماني الثاني وكانت موجة هائلة ذهب ضحيتها اكثر من مائة الف من الانفس في مدة لا تزيد عن الثلاثة اشهر وكانت سببا في تنازل حسن باشا عن ولايته لاحمد باشا البزركان وقد حبسه هذا حتى مات ·

obeikandl.com

اما الموجة الهائلة للطاعون فكانت عام ١٨٣٠م . وكانت هذه السنة سنة ويل ومحنة على بغداد لم تشهد لها مثيلا الا في نكبتها الكبرى على يد هولاكو : فقد بدأ الطاعون في شمال ايران وهاجم العراق بعنف وشدة وكان في مسيره يقضي على القرى واهلها قضاء مبرما ويقول المصدر الذي نستقي عنه هذه المعلومات عن هذا الطاعون وما تبعه من طوفان واحداث سياسية ما يلي (١) :ـ

« كانت الاخبار المزعجة تصل الى بغداد عن هلاك القرى والقبائل فاشار المندوب البريطاني لدى الوالي التركي ان يعمل على ايجاد دار للكرنتينة (العزل) الا ان هذه الفكرة لاقت مقاومة شديدة وقد قرر من كان بيدهم امر الطب من الاطباء المحليين ان تلك الفكرة مخالفة للانسانية ومعارضة لجوهر الدين (كذا) .

وفي مارت من تلك السنة بدأ المرض في بغداد في احياء اليهود الفقيرة بان توفى خمسة اشخاص فجأة في بيت واحد ومن ذلك البيت انتشر الوباء في بغداد . وفي نيسان عم الوباء المدينة كلها وعم الرعب فيها وساد عليها الهلع وكانت الالاف تموت فيها اسبوعيا فكنت ترى الجثث مكدسة في المقابر بلا دفن ، وهاجر البعض من السكان الى الصحاري هربا من الوباء وهاجمت عصابات المجرمين بغداد تنهب الاحياء وتنزع الحلى عن اجساد الاموات .

ووجد المندوب البريطاني ان الحجر الذي اقامه حول منزله لا يمكن المحافظة عليه فهاجر وجماعته الى البصرة بعد ان ماتت زوجته بالوباء .

وفي العاشر من ابريل جاء دجلة الغاضب يزيد الطين بلة فقد تميع الجليد في الشمال وبدأ النهر في الارتفاع وليس عجبا ان لا يأخذ السكان اهبتهم له لانشغالهم بالطاعون من جهة ولانه حصل في الليل من جهة اخرى مما زاد في هول الفاجعة وشدتها .

---

(١) بغداد مدينة السلام لريشاد كوك بالانكليزية صفحة ٢٥٧ .
وتاريخ مدينة الخلفاء لويلست بالانكليزية صفحة ٢٨٩ .

obeikandi.com

تسربت المياه حول بغداد بشكل هائل ثم دخلت المدينة وطغت على شوارعها وازقتها وبيوتها ، وما اصبح الصباح حتى كانت الجدران تتداعى والبيوت تنهدم جملة بصورة سريعة فتجهز بذلك على آلاف الضعفاء والمرضى الذين كان الطاعون قد فعل فيهم فعله الممقوت ، وجاء الطوفان على الاموال كما جاء على الانفس وكانت الخسارة فيهما كبيرة جدا لم يسبق لهما مثيل .. وما انتهى هذا الطوفان الا كانت بغداد في محنة وهول شديدين .

وفي شهر مايس خف الطاعون والطوفان بعد ان اسلما المدينة الى حالة من البؤس لم تشهد له مثيلا في نكباتها المتوالية على عصور التاريخ .

وكان الباشا التركي ، وهو ضحية الطاعون كذلك ، يجلس بعد هذه الفواجع في سرايه الفارغ هو وامرأة عجوز تبقت من اهله وقد اختفي جنده وحرسه وخدمه ، مات منهم من مات وهرب منهم من هرب وبقى سيدهم وحده فريسة المرض والوحدة .

وفي هذا الوقت الذي تفككت فيه قوى الترك كان علي رضا الفارسي يزحف بقواته على بغداد ودخلت قواته وتجمعت في باب الشيخ ثم زحفت على المدينة ودخلت السراي الفارغ بلا مقاومة طبعا ، وبقت بغداد فريسة لطغيان هؤلاء الطغام بعد الطاعون والطوفان » ؛ اعان الله بلد السلام ....

ورجعت بغداد بعد ذلك للاتراك وحل طاعون آخر عام ١٨٧٥ م وقد زال اثره بعد مدة قصيرة ولم يكن بصورة وبائية شديدة .

موجات الكوليرا

وليس لدينا عن الكوليرا من المعلومات الا منذ سقوط العراق بيد الانكليز ، ومصدر هذا الوباء الهند عن طريق البصرة ، وقد جاءتنا هذه الموجات بصورة دورية كل ثلاث سنين لم تخطيء الا عام ١٩٣٧ وهي وقت الدورة كما انه ليس هناك ما يدل على مجيء الموجة هذا العام ولا شك في ان للتحوطات الصحية اثرا مهما في ايقاف مجيء هذه النكبة .

وقد عمت الكوليرا في السنين التالية (مرة كل ثلاث سنوات) ١٩١٨ـ١٩٢١ـ١٩٢٤ـ١٩٢٧ـ١٩٣٠ـ١٩٣٤ .